بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 34 الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم المبحث: سورة لقمان

التاريخ:18\01\2022 م كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني

ما زال بحثنا في الآية الثامنة عشر، قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾

وقبل أن أتابع في البحث، بعض الأخوة الأعزاء أرسلوا سؤالاً يرتبط بالآية السابقة، أو بالتحديد بذيل الآية السابقة: ﴿إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور﴾ حيث ذكرت في البحث السابق أن العلامة الطباطبائي رحمه الله اختار أن المشار إليه هو خصوص الصبر، ودليله على ذلك بعد كون الآية تحتمل كلا الاحتمالين ثبوتاً، يعني ثبوتاً لا يوجد مانع أن يكون المشار إليه هو الصبر لوحده أو يكون المشار إليه تمام الأمور المتقدمة، ثبوتاً لا مانع من كلا الاحتمالين. مع وجود كلا الاحتمالين استدل بإثبات تخصيص المشار إليه بالصبر بقرينة خارجية، وهي أن هذا التعبير ﴿إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور﴾ ورد في آيات أخرى، في سورة آل عمران وفي سورة الشورى، وبما أن المشترك بين هذه الآية والآيتين المشار إليهما هو الصبر، مرة تكون الآيات الثلاثة مشتركة في تمام الأمور الثلاثة، يعني إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن والصبر، فنقول هذا لا يكون قرينة؛ لأن كلا الاحتمالين كما هو بالوجدان ثابت في هذه الآية، هو ثابت في سائر الآيات، لكن لا تشترك الآيات الثلاث في الأمور الثلاثة، وإنما المشترك بينها خصوص الصبر، فإذا كان المشترك هو خصوص الصبر، فيرى العلامة الطباطبائي رحمه الله أن هذا الاشتراك بالصبر يعين أن يكون المشار إليه هو خصوص الصبر.

وخلاصة رأيي في المقام بعدم الموافقة على ما أفاده في تفسير الميزان لنكتتين:

النكتة الأولى: أنه صحيح أن الآيات الثلاث لا تشترك ظاهراً في الأمور الثلاثة، لكن معنوياً تشترك، فإنه في آية آل عمران ذكر التقوى مع الصبر، والتقوى مع الصبر لا يراد منها مجرد الملكة، بل الأمور المحصلة للتقوى، ومن أهم الأمور المحصلة للتقوى إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

النكتة الثانية: وهي المهمة الذي ينبغي أن ندقق فيها، أنه في آية لقمان الصبر كان أخيراً، كان متأخراً، بينما في الآيتين الأخريين -آل عمران والشورى- الصبر ذكر أولاً ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[1] وفي سورة الشورى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[2] فالصبر ذكر أولاً والغفران والمسامحة ذكرت أخيراً.

هذا الاختلاف في الترتيب يشكل قرينة معاكسة لما أفاده العلامة الطباطبائي رحمه الله؛ باعتبار أن نحن ذكرنا ثبوتاً يوجد احتمالان ممكنان، وتلاحظ أنه لم نذكر يوجد احتمال ثالث، وهو أن يرجع ﴿إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ إلى إقامة الصلاة، يعني ما ذكر أولاً؛ لأن هذا خلاف الظاهر جداً، بل هو إما أن يرجع إلى الأخير وإما أن يرجع إلى الجميع، لا أن يرجع إلى الأول فقط؛ لأن لو كان مراد المتكلم الرجوع إلى الأول لأوقع المخاطبين في الالتباس، ومجرد كون اسم الإشارة للبعيد نص المفسرون بما فيهم العلامة الطبطبائي رحمه الله على أن هذا البعد هو بعد معنوي، لا بلحاظ أن ما ذكر أولاً. فإذن في آية آل عمران وفي آية الشورى لا بد أن تكون التقوى داخلة في المشار إليه، لا بد أن يكون غفر داخل في إليه، فلا يصلح حينئذ قرينة، فتصبح القرينة عكسية. هذا ما يرتبط بالبحث السابق.

ونرجع إلى آية البحث، ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أيضاً بعض الأخوة الأعزاء أصرّ على أنه هناك وجه قوي لتأييد ما ذكره في تفسير القمي، حيث قلنا: تصعير الخد ذكر له معنيان:

المعنى الأول: التكبر والفخر.

المعنى الثاني: التذلل.

تمام المفسرين بحسب الظاهر اعتمدوا على التفسير الأول، فقط في تفسير علي ابن إبراهيم ذكر المعنى الثاني، وقال: لأن تصعير الخد بمعنى إمالته، وبالإمالة كما تصلح للتكبر على الآخرين، تصلح للتذلل

[1] آل عمران 186
[2] الشورى 43

أمام الآخرين. ثم أيد التذلل بالمقابلة، أنه جمع بين الأمرين، يريد لقمان عليه السلام في هذه الوصية أن يكون الإنسان على حد وسط، لا متكبر ولا ذليل، فهذا يتناسب مع الآية الشريفة.

تصعير الخد، وهذه الكلمة استعملت في اللغة العربية مع البعير، عندما يجحف عن صاحبه وعن الطعام، فلا يأكل، يميل بعنقه إلى جهة أخرى، فهي ميل العنق، الكلام ليس في المدلول التصوري للكلمة، هذا واضح لكل أحد، وإنما الكلام في هذه الحالة وهذه الصورة وهذه الكيفية كناية عن أي شيء؟ الكنايات ليست من قبيل المجاز، لكنها تحتاج أيضاً إلى قرينة، عندما تقول زيد كثير الرماد، تحتاج إلى قرينة بأن المراد الجدي هو الكرم، لا الإخبار عن كثرة الرماد عنده، ونحن في المقام عندنا ثلاث قرائن تؤيد التفسير المشهور:

القرينة الأولى: ما ذكره معمر ابن المثنى، وهو من أوائل علماء البيان، في كتابه المشهور مجاز القرآن[3]، فينقل بعد أن يبين أن المعنى من قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ فيقول: مجازه ولا تقلب وجهك ولا تعرض بوجهك في ناحية من الكبر. يقول: وهذه الكلمة مأخوذة من الصعر الذي يأخذ الإبل في رؤوسها حتى لا يفلت أعناقها. ثم جاء بشعر جاهلي يدلل على ذلك، يقول:

وَكُنّا إِذا الجَبّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ  أَقَمنا لَهُ مِن مَيلِهِ فَتَقَوَّما

يقول: قبيلتنا، وهي بنو تغلب، حتى الجبار إذا صعر خده، الجبار يصعر تكبراً، وهذه لمناسبات الحكم والموضوع تقتضي هكذا، هذا الجبار إذا تكبر علينا أدبناه، فهو يذكر فضيلة لقبيلة بني تغلب، أن الجبار إذا تكبر علينا أدبناه.

فإذن المتعارف عند العرب في شعرهم وفي نثرهم جعل تصعير الخد كناية عن التكبر والكبر.

القرينة الثانية: تلك الرواية التي نقلتها في البحث السابق عن الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام بسند لا بأس به: عِدَّةٌ مِنْ أَصْحَابِنَا عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْبَرْقِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُغِيرَةِ وَمُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ زَيْدٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ع فِي هَذِهِ الْآيَةِ- وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ قَالَ: لَيَكُنِ النَّاسُ عِنْدَكَ فِي

[3] تعبير لهذا الكتاب بمجاز القرآن ليس المقصود منه المعنى الاصطلاحي، بل ما يشمل الكناية، وما يشمل التشبيه بحسب التتبع في موارده.

الْعِلْمِ سَوَاءً[4]. أي: على المعلم أن يعامل التلاميذ على حد سواء، فلا يتكبر على بعضهم على حساب البعض الآخر، فهذه قرينة خارجية ورواية معتبرة سنداً على تأييد المعنى الشائع عند علماء التفسير.

القرينة الثالثة: حتى تتضح هذه القرينة، لابد أن ندخل تفسير السياقي، في الآيتين الأخيرتين قال: ﴿يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وقلنا سابقاً: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ ترجع إلى تكميل النفس ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ترجع تكميل الغير، بعد أن تكمل نفسك كمل غيرك، الإنسان الذي يكمل نفسه من آفات العبادة وهي الفخر، ومن آفات تكميل الغير التكبر على الغير، لأني أعلمك فأتكبر عليك، ففي الربط السياقي بين الآيتين بعد أن أوصى لقمان عليه السلام ابنه تكميل نفسه بالعبودية لله وتكميل غيره عن طريق أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وكان من آفات تكميل النفس وتكميل الغير الفخر والتكبر، فكأنه خشي لقمان عليه السلام على ابنه لما أمره بتكميل نفسه وبتكميل غيره أن يقع في خصلة التكبر على الغير؛ بسبب كونه مكملاً له، وفي خصلة التبختر والفخر في نفسه؛ بسبب تكميله لنفسه، فجاء وقال: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ فـ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ ترتبط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يعني بتكميل الغير ﴿وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ ترتبط بتكميل النفس بإقامة الصلاة، هذا التناسب يقتضي أن نفسر تصعير الخد بمعنى التكبر على الغير، لا بمعنى التذلل للغير، فالتفسير السياقي أيضاً يتناسب مع هذا المعنى المشهور بين المفسرين، فكأنه له: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ تكبراً عليهم؛ لأنك تقدم لهم شيئاً، تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، ﴿وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ متبختراً فخوراً بنفسك؛ لكونك قد أكملت نفسك بإقامة الصلاة؛ لأن﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾ أي: يبغض كل من يكون عنده خيلاء ويرى عظمة نفسه، وهذا هو التكبر، ويكون مفتخراً بنفسه، وهو الذي يرى عظمة لنفسه عنده، فتكون الآية جمعت بين التكبر وبين الفخر، والجمع بين التكبر والفخر له مناسبة واضحة مع تكميل النفس وتكميل الغير. هذا ما يرتبط بقوله: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ وفي الأثناء شرحنا بقية المقصود من الآية الشريفة.

---

[4] الكافي (ط - الإسلامية)، ج1، ص: 41